



لوحة رقم (٢) الفنان الأمريكي توماس إيكينز - براءة الطفولة

المرحلة الأولى : التحليل الوصفي

رسم الفنان (توماس إيكينز) (Tomas Eakins) هذه اللوحة عام ١٨٧٦م أي قبل مائة وتسع وعشرين عاماً ، وكان موضوعها براءة الطفولة . وهي تصوير تشكيلي ليس طفل فيما يبدو من واقع اللوحة بل لطفلة . فهي في الواقع ابنة أخ الفنان (إيكينز) . حيث قام برسم هذه الطفلة في الحديقة الخلفية لمنزله . ومن خلف الطفلة يمكن رؤية مجموعة من الأشجار ، والنباتات الخضراء ، والمختلفة في أحجامها ، وأطوالها ، وعن يسار الطفلة يوجد حوض خاص من البلاستيك أو الفخار فيه نبت نبتة صغيرة ، وفي مركز سيادة العمل تتمركز الطفلة المستغرقة في اللعب ، واللهو ، وبجسدها المائل والمنحني على اللعب ، وهي مطرقة رأسها إلى الأسفل ، ومنشغلة بما تقوم به من بناء أو تركيب أو ترتيب وتنظيم ، وهي تلبس رداء أبيض اللون ، وأيضاً الجوارب ذات اللونين الثنائيين الأحمر والأصفر ، وحدائرها ذا اللون الأسود . وبالمقربة منها يوجد مجموعة من المكعبات الخشبية أو البلاستيكية، والتي طليت إحدى واجهتها باللون الأحمر ، وكتب أو حفر على واجهتها الأحرف الأبجدية اللاتينية مثل: "A.B.C.G.N.Z" مبعثرة بشكل عشوائي ، وعن يمين الطفلة نرى عربة خشبية حمراء اللون ، ويجرها إلى الأمام حصان خشبي ذا

اللون الأبيض . ومن الضوء المنعكس الشمس على الحديقة ، وعلى الوجه الطفلة ربما يكون وقت التصوير ما قبل منتصف النهار ما بين الساعة التاسعة والعاشر صباحاً تقريباً وكان الفنان قد سحب الضوء من كل الأشياء، والأشكال ، والأشجار ليسلطة على الطفلة لوحده ليؤكد أيكنز على لحظة إنسانية تتمثل في البراءة .

المرحلة الثانية : التحليل الشكلي

فمن اللوحة يتضح أنها تحتوي على العديد من الأشكال ، والمجسمات الهندسية ، فمثلا من المكعبات الخشبية أو البلاستيكية التي احتوت على الحروف ، وكذلك شكل العربة الخشبية المستطيلة التي يجرها الحصان ، وكذلك شكل البناء الذي بنته الطفلة والذي تشكل على عدة أوضاع هندسية ، وكذلك شكل حوض النبتة الذي أخذ شكل المخروطي . بالإضافة إلى الأرضية المكونة ربما من البلاطة الفخارية ، والحجرية على هيئة مربعات متراسة بشكل منظم ، ومتداخل مع بعضها البعض .

أما الألوان فهي تنحصر في أربعة ألوان بارزة في اللوحة من اللون الأخضر الذي يغطي مساحات كبيرة للون الأشجار، والنباتات في المساحة التي تقع خلف الطفلة التي تلهو في الحديقة المنزلية ، وهذا اللون قد تفاوت في درجاته بين اللون الأخضر الفاتح الذي يمثل انعكاس أشعة الشمس في فترة الصباح ، والدرجات البينية بينه ، إلى اللون الأخضر القاتم الذي يمثل جانب الظل الواقع على الأشجار ، والنباتات ، وهو يحتل مساحة كبيرة في جانب الأيسر للوحة ، وخاصة في الزاوية العلوية للوحة عن يمين الطفلة ، ودلالة اللون هنا دلالة ربما على الحياة ، والثقة التي منحوها والدي الطفلة للتعلم ، وكتساب مهارات التفكير والكفاح ، فالطفلة تشكل الأمل المنتظر لهما مستقبلاً عندما تكبر ، وتحقق لهم ما رجوه في الصغر. واللون الآخر هو اللون البني ، وهو اللون الذي يغطي مساحة كبيرة في الأرضية ربما الفخارية أو الحجرية ، والذي أعطى دلالة على الاستغراق ، والتفكير السطحي الذي يدور في ذهن الطفلة ، والذي يتقدم بها كلما سعت إلى محاولة تركيب أي قطعة من قطع المكعبات الخشبية ، لينمو معها مهارات ، وقدرات فكرية

، في حل المشكلات البنائية للمكعبات . بدلا من محاولة التشكيل بالأحرف الأبجدية لتكون مقاطع من الجمل المفيدة ، وكما أن اللون البني يتضمن درجات متفاوتة في اللوحة على ألوان المكعبات الخشبية ، والبناء المشكل ، والحوض النباتي ، بالإضافة إلى القيم اللونية للظل المشكلة على الأرضية ، وعلى العناصر الموجودة في اللوحة . واللون الثالث هو اللون الأحمر كما هو بارز في لون العربة التي يقودها الحصان أو في بعض واجهات المكعبات الخشبية التعليمية للقراءة ، والكتابة، وكذلك في لون الجراب الذي تلبسه الطفلة ، ومن هنا نلمس ذكاء الفنان كون اللون الأحمر يشكل ثقلاً لونياً ، وهو أكثر العناصر اللونية اجتذاباً للنظر ، فقد عمد إلى توزيع اللون الأحمر على ثلاثة أجزاء متفرقة ، وبنسب متفاوتة ، ليكون عنصر الانسجام اللوني بين باقي الألوان في اللوحة. بالإضافة إلى القيم اللونية للألوان المحايدة بين اللون الأبيض في لون الرداء الذي تلبسه الطفلة ، ولون الحصان ، واللون الأسود في لون الحذاء المصنوع من الجلد . وأما العلاقة بين الخلفية ، ومركز السيادة في اللوحة ، فإن الأشجار ، والنباتات والألوان الخضراء تمثل فطرة الطبيعة ، وأما الطفلة والألوان البيضاء فإنها تمثل الفطرة الإنسانية ، وهي البراءة .

المرحلة الثالثة : تحليل المعنى
أ- التحليل الداخلي أو الضمني

فعندما نمحص في اللوحة ندرك ربما أن الفنان أيكنز لم يكن بخلده أن يصور تلك الطفلة ، وهي في حالة استغراقها في اللهو واللعب ، وهي تمارس كاملة حريتها ، وراحتها في ذلك ، و تطول بها الساعات دون كلل أو ملل ، أن يقصد به كتصوير تشخيصي لها ، ومن ثم أهداها لأخيه . وإنما هدف من ذلك إيصال فكرة بصورة رمزية ، هو مدى الاحتياج الفطري للطفلة البريئة للتربية السليمة ، والتنشئة الصحيحة في التعلم ، واكتساب المهارات اللازمة ، والضرورية لنمو جسمها ، وعقلها، من تعويدهم على أعمال العقل ، وأساليب التفكير الابتكاري ، فربما أراد أبا تلك الطفلة أن تقوم بالمحاولة لتشكيل صيغ جديدة من الكلمات ، والجمل بتلك المكعبات الخشبية التي تحمل الأحرف الأبجدية ، وإعادة ترتيبها مرة أخرى ، وتعويدها على القراءة ، والكتابة . لتصبح فيما بعد أديبة أو بارعة في

الأدب ، والثقافة أو عالمة مختصة في علم اللغة . ولكن في اللوحة يتضح أن الطفلة قلبت تلك المكعبات رأساً على عقب . لتبدأ في تنفيذ مشروعها الخاص في بناء المسكن أو البناء الخشبي البسيط الذي تتخيله ، وربما شقت الطفلة لنفسها طريقاً مخالفاً لرغبة أبائها . فربما أرادت لنفسها أن تصبح مهندسة ، أو أستاذة في الرياضيات ، والحساب أو متخصصة في طرق البناء ، والتعمير ، ولهذا ذهبت الطفلة تختار لنفسها اللعب ، والوقت ، والهيئة ، والتركيب لتبدع ما تشاء على حسب رغبتها وتفكيرها البسيط . لتقدم مبادئ تركيب الأرقام ، والمقاييس الدقيقة في البناء ، والتكوين ، وحساب الكتلة الخشبية ، وتوازنها ، وحساب الارتفاعات . قبل مبادئ تركيب الحروف الأبجدية اللاتينية في تشكيل كلمات مثلًا : "CAN.BAN.TAB" وحتى وأن كانت بعض الصيغ المشككة لا تعني شيئاً بالبتة . فمن اللوحة مرة أخرى يبدو أن الطفلة في مشكلة أو معضلة هندسية فيدها اليسرى ممسكة بإحدى المكعبات الخشبية أو الكرتونية ، ولا ترفع يدها عنه . وهي مستغرقة في فكر عميق في كيفية الوصول إلى بناء المسكن الذي خطت له . فربما يكون مسكن العروس كما يفعل غالبية الأطفال . لتقومه على أسس سليمة حتى لا يذهب تعبها هدرًا . وفي الوقت الطويل الذي تقضيه أو في تحديد الأبواب ، والمداخل ، والنوافذ له . وكأن هذه اللوحة تعرض لنا المقارنة بين الطفل في ذلك الوقت من تهيئة سبل الراحة ، والوقت من العربة ، والمكعبات ، وآلات اللهو ، واللعب المقتنة لتنمي لديه مهارات فكرية عديدة ، فربما أن الطفل في الوقت الحاضر قد يجد بدل كل هذا آلات الحرب ، والدمار ، والفتك بالإنسانية من آلات المدفع ، والدبابة ، والعربات المصفحة ، والقنابل الموقوتة ، والعنقودية ، والذكية ، وأسلحة القتل الحديثة التي تنمي فيه مهارات القتل ، والعدوان ، والبطش بلا رحمة ، ولا هوادة .

ب- التحليل الخارجي أو غير الضمني

فالعامل ينتمي كما عرف عن أيكنز بالأساليب الواقعية من التدقيق في ملامح الوجه ، وإظهار الانفعالات من حالات التفكير واللعب واللهو والانحناء بالجسد. وتسلط الضوء على عنصر المهم الذي يمثل مركز السيادة في لوحاته ، وخاصة أن معظم لوحاته تؤكد على قيمة الجهد الإنساني المبذول من رأس الإنسان ، سواء كان هذا الجهد من طفل صغيراً أو أستاذاً متخصصاً أو عالم متبحراً في فرع من فروع العلم ، والذي يتضح في الكثير من أعماله التي رسمها أيكنز قبل أو بعد لوحته هذه بفترة وجيزة ذلك . كما أن الفنان متأثر بالنظريات التي تتعلق بتنشئة الطفل ، والتي تنظر للأساليب التي ينبغي أن ينتهجها الأطفال في أسلوب التخطيط والتطور الذهني في التعليم والتربية . فهذا الأمر سعت إليه الحضارات القديمة على تأهيل قدرات الأطفال منذ الصغر للاستفادة منهم مستقبلاً عندما يكبرون، والتي أخذت مناحي ووسائل شتى ، فكان اليونانيون مثلاً يستغلون حاجة الأطفال للعب من خلال تدريبهم على الألعاب الرياضية ، والقوة الجسدية قبل النشاطات العقلية من القراءة والكتابة ، وكذلك الحال للرمانيين الذين يأمرّون أطفالهم للعبور النهر ليموت الضعيف ، ويبقى القوي ، إلى الوقت الحاضر في ظهور النظريات الحديثة في تنشئة الصغار ، ورعايتهم ، ومراحل نموهم الجسدي والعقلي والاجتماعي والانفعالي والديني والأخلاقي وغيره .